واجهت القوات العثمانية الغازية حال وصولها إلى أراضي الدولة السعودية الأولى صوراً رائعة من الدفاع والاستبسال من قادة الدولة ومواطنيها في أنحائها كافة. والدليل على هذا تلك الخسائر التي أحدثها السعوديون في القوات العثمانية الغازية المتعددة، والمدة التي استغرقتها تلك الحملات لإنهاء الدولة السعودية الأولى، وهي أكثر من ثماني سنوات بدأت في عام ١٢٢٦هـ وتضمنت عشرات الحملات ومئات الألوف من الغزاة المقاتلين ذوي الجنسيات المتعددة ومئات المدافع. وعلى الرغم من استبسال السعوديين ودفاعهم فإن الدولة السعودية انهزمت بعد كل هذه الحملات الكبيرة، وسقطت عاصمتها عام ١٢٣٣هـ.

رسم تخيلي للإمام عبدالله بن سعود

ومن أبرز معارك دفاع السعوديين عن أرضهم ودولتهم ومبادئهم ما يأتي:

١- معركة وادي الصَّفْراء:

معركة مهمة من معارك المواجهة والدفاع حدثت في وادي الصفراء بالقرب من المدينة المنورة عام ١٢٢٦هـ، حيث تقابلت القوات السعودية والقوات العثمانية بقيادة (طوسون). وكانت القوات السعودية بقيادة الأمير عبدالله ابن سعود بتكليف من والده الإمام سعود بن عبدالعزيز ومعه الأمير فيصل بن سعود بن عبدالعزيز ومسعود بن مضَيان وحبَّاب المطيري. وضع الإمام عبدالله بن سعود خطة حربية مُحْكَمة، حيث قسم قواته إلى قسمين: قسم في الوادي، وقسم في قمم الجبال المحيطة، وحفر خندقاً في مضيق وادي جديدة.

إثراء

وادي الصفراء

وادٍ من أكبر أودية الحجاز، ينحدر من جبال السَّرَوات، ويتجه غرباً مع ميل إلى الجنوب، وهو وادٍ كثير العيون والنخيل، وله أسماء أخرى.

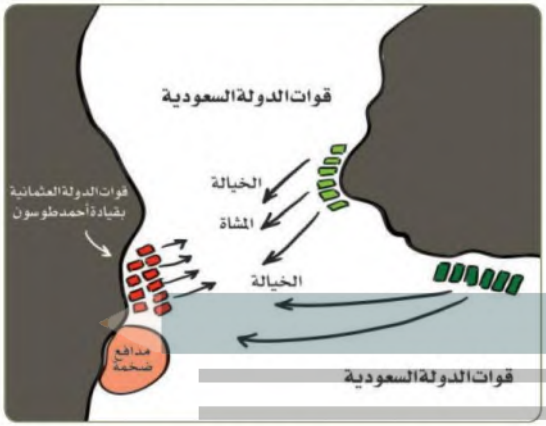

معركة وادي الصفراء

وعندما قَـدِمَ (طوسـون) بالقوات العثمانيـة الغازيـة وعَبَر ممـر وادي جديـدة واجهتـه نـيران كثيفـة من القوات السـعودية التـي في الخندق، فوجَّه جـزءاً كبيراً من قواتـه للصعود إلى الجبال لإسـكات تلـك النيران من الأعلى، فاسـتقبلتهم القوات السـعودية المرابطة في الجبـال فحصدتهم، فدب الخوف والهزيمة في قوات (طوسـون) وفـرَّ مـا تبقـى منهـم منهزمين مع قائدهم ولجؤوا إلى البلـدات المجاورة.

المدينة المنورة قديما

٢- معركة المدينة المنورة:

وصلـت القـوات العثمانيـة الغازية بقيـادة (أحمد بن نابـرت) إلى المدينة المنورة في عـام ١٢٢٧هـ، وحاصرتها حصـاراً شـديداً، حيث سـلطوا عليها مدافعهـم الضخمـة، وحفـروا سرداباً تحت سـور قلعتهـا وملـؤوه بالبارود وأشـعلوا فيه النار حتى تهدم السـور وتمكنـوا مـن دخولها. استبسـل السـعوديون المرابطون والأهـالي للدفاع عـن المدينة المنـورة، ولكن ضخامـة القوات الغازيـة وشراسـتها دون مراعاة لحرمـة أرض المدينة المنـورة التي بها مسـجد النبي ﷺ ومثواه، أدت إلى استسـلام السـعوديين بشرط تجنب الإضرار بالمدينـة المنـورة أو التعـرض لأهاليها. لم تلتـزم القوات الغازيـة العهد، فبعد دخولهـا بدأت ترمـي بالمدافع لقتـل المزيد. وأورد المـؤرخ عثمان بن بـشر تفصيلات هذه المعركـة موضحاً بطولة السـعوديين المدافعين عن المدينة المنورة من «عسـير، وأهل بيشـة، والحجـاز، وأهل الجنـوب، وأهل نجد».

٣- معركة تُرَبَة:

اتجهت الحملة العثمانية الغازية بقيادة (طوسون) إلى تربة عام ١٢٢٨هـ، وحاصرتها أربعة أيام مع رميها بالمدافع الضخمة، ولكن استبسال أهاليها السعوديين مَنَعَ تلك القوات من دخولها. وظهرت في هذه المعركة بطولة (غالية البقمية) التي أخفَتْ مرضَ زوجها حاكم البلدة حتى لا تضعف همم الأهالي المدافعين عن بلدتهم، وفتحت المخازن ووزعت الأسلحة وشحذت الهمم لمواجهة العدو. ونتيجة لذلك تمكن السعوديون في تربة من الانتصار على القوات الغازية الضخمة.

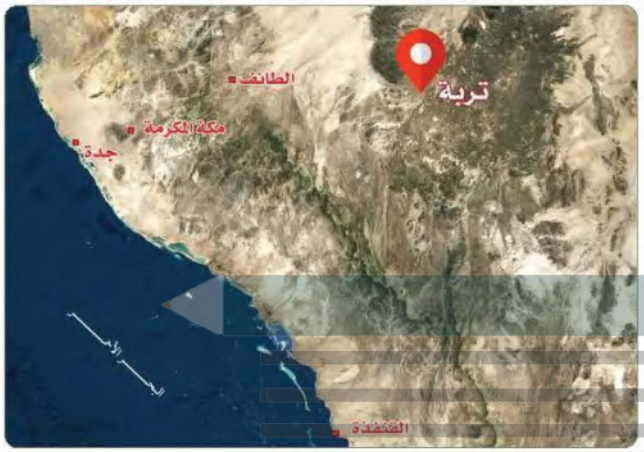

موقع تربة والطائف والقنفذة

٤- معركة الطائف:

حاصرت القوات العثمانية الغازية في عام ١٢٢٨هـ ويساندها الشريف غالب قصرَ بَسْل شرق الطائف وفيه القوات السعودية بقيادة عثمان المضايفي أحد رجالات الدولة السعودية الأولى، وتمكنوا من دخوله وهزيمة القوات السعودية ثم القبض على عثمان المضايفي وقتله شهيداً رحمه الله.

٥- معركة القُنْفُذَة:

أحرز السعوديون نصراً كبيراً على الحملة العثمانية الغازية في القنفذة على البحر الأحمر في عام ١٢٢٩هـ، وواجهوا قوات الغزاة براً و بحراً وتمكنوا من صدها، وفر المقاتلون الغزاة إلى سفنهم تاركين وراءهم مدافعهم ومُؤَنَهم من شدة القتال.

إثراء

غالية البقمية:
اشتهرت بالشجاعة والرأي وقوة الشخصية، تمكنت من إدارة المواجهة ضد الحملة العثمانية بسبب مرض زوجها زعيم البلدة.